

مايكل صاندل والرهانات الأخلاقية للهندسة الوراثية

Michael sandel and the ethical issues of genetic engineering

هشام معافة،

جامعة قسنطينة 2- عبد الحميد مهري ،

hichem.maafa@univ-constantine2.dz

تاريخ القبول: 2024/10/ 28

تاريخ الاستلام: 2024/02/ 06

ملخص:

إن غرض "مايكل صاندل" من مقارنته الأخلاقية للهندسة الوراثية عامة والمركز الأخلاقي للجنين بشكل خاص هو التأسيس لأخلاق جديدة معتدلة تتموضع بين موقفين متطرفين: بين البيوتقديمين والبيومحافظين، بين من يدافع، من جهة، عن التلاعب الجيني ويدفع بمنطقه البراغماتي الى أقصى الحدود في تحسين واعلاء قدرات الانسان الذهنية والجسدية والعقلية؛ فمادامت التقنو-علمي وتطبيقاتها على الحياة تجلب السعادة للإنسانية لما لا نستخدمها وحسب. وبين اتجاه محافظ يرفض، من جهة أخرى، أي مساس بالطبيعة الإنسانية لما ينجم عنها من تهديم للأخلاق الكونية؛ لأن الأخلاق ليست سوى احترام السمات المشتركة بين البشر. يطلق "مايكل صاندل" على هذه الأخلاق المعتدلة اسم "أخلاق الامتنان لهباتنا الطبيعية" وهي تنفتح على تطبيقات التقنو-علمي بغرض تصويب مناقص الطبيعة وأخطاء العالم، لذلك يدافع عن ضرورة استخدام الخلايا الجذعية في بحوث علمية لأغراض طبية علاجية.

الكلمات المفتاحية: هندسة وراثية، أخلاق، هبة، طبيعة، جنين، خلايا ذعية.

Summary :

Michael sandel purpose in this ethical approach to genetic engineering in the form of the moral status of the embryo in particular is to establish a new moderate morality that lies between two extreme positions between bioprogressives and bioconservatives, between those who, on the one hand, defend genetic manipulation and push their pragmatic logic to the extreme. In improving and enhancing human mental, physical and intellectual abilities, as long as the technology and its applications to life bring happiness to humanity, even if it is not just used. On the other hand, there is a conservative trend that rejects any violations of human nature due to the resulting destruction of universal morality, because morality is nothing but respect for the common characteristics among human beings. Michael sandel calls this moderate ethics « the ethics of gratitude for our natural gifts », and it opens up to applications of scientific technology for the purpose of correcting the failures of nature and the mistakes of the world. Therefore, he defends the necessity of using stem cells in scientific research for therapeutic medical purposes.

Keywords: Genetic engineering; morality; gift; nature; embryo; Stem Cells.

هشام معافة, hichem.maafa@univ-constantine2.dz

أولا. مقدمة:

لعل "هانس جوناكس" "Hans Jonas" من الفلاسفة الذين تَبَيَّنُوا وضع الأخلاق المعاصرة حينما جعل التقنية عاملا جوهريا في العلاقات الأخلاقية تعكس التحول من المركزية الإنسانية إلى مركزية التقنو-إنسانية؛ فالتقنية لم تعد محايدة بعيدة عن كل معنى أخلاقي قد تحمله بل أضحت متغيرا مؤثرا في الطبيعة الإنسانية تضخمت بموجها قدرة الانسان ومجال الهيمنة التي كان يرومها منذ اعلان ديكارت المشهور: "أن غرض العلم ليس المعرفة لذاتها بل السيطرة على الطبيعة". فما تشهده العلوم أو التكنولوجيات المتقاربة (NBIC) (البيوتكنولوجيا والهندسة الوراثية والنانوتكنولوجيا والمعلوماتية) من تقدم اليوم فاق كل الطموحات التي كانت تصبو إليها الإنسانية منذ عقدين من الزمن، بحيث نشهد تزايدا أنطولوجيا لوضع الإنسان المعاصر بشكل مطرد مع توسيع تطبيقات التقنو-علمي على الإنساني؛ فالممكن التقني المُسلط على البيولوجي لم يعد محظورا ايتيقا، على نحو فتحت التقنية –ولا تزال- المجال رحبا أمام توسيع الغايات الإنسانية وتعديل الطبيعة البشرية بشكل غير مسبوق، وبشكل خاص ما تعرفه الهندسة الوراثية راهناً من تطورات جعلت منها سلاحا ذي حدين، فهي تشكل وعداً ومشكلة في الوقت نفسه، الوعد هو أننا سنصير قادرين -في وقت قريب- على علاج الكثير من الأمراض الخطيرة. والمشكلة مقتضاها أن معارفنا الجديدة التي اكتسبناها في الهندسة الوراثية بوسعها أن تسمح أيضا بالتلاعب بالطبيعة الإنسانية، على نحو يكون بوسعنا زيادة قدراتنا الجسدية والمعرفية فوق قدراتنا العادية. والسؤال المطروح هنا: هل ينبغي أن نفتح المجال أمام البحوث والتجارب في الهندسة الوراثية دون حسيب أو رقيب؟ أم ينبغي مراقبتها ومناهضتها لما قد تجلبه من مخاطر على الإنسانية؟

ثانيا. الهندسة الوراثية بين الطرح العلمي والمقاربة العواقبية:

ناقش "مايكل صاندل" الإشكالية التي أتينا اللحظة على ذكرها -أعلاه- من زاويتين: الأولى ذات صلة برفض مخرجات التلاعب الجيني من منظور علمي وطبي، والثانية من جهة عواقب هذه النتائج. بالنسبة للأولى يرجع القلق والتوجس الذي نستشعره تجاه بعض الاشكال من الهندسة الوراثية إلى كون نتائج التلاعب بالحياة خاصة الاستنساخ وتحسين النسل ليست دائماً مضمونة، حتى لو افترضنا تطور تكنولوجيات الاستنساخ إلى درجة لا تكون المخاطر أكبر من مخاطر التكاثر الطبيعي بحث لا يمكن المفاضلة بينهما فسيظل الاستنساخ الإنساني غير مقبول، فهل سيكون مستحباً أو مرفوضاً أن نخلق طفلاً هو التوأم المتطابق لوالده أو أمه أو عالم أو نجم رياضة أو شخصية مشهورة محل اعجاب من طرف الوالدين؟

يرفض البعض هذه التطورات في الهندسة الوراثية لأنها تنتهك حق الطفل في الاستقلالية وتسلبه حقه في أن يكون لديه مستقبلاً مفتوحاً، لأن الوالدين اللذين يختاران مسبقاً الخصائص الجينية لأطفالهم يمنحونهم حياة متموقعة داخل خياراتهم كما لو كان وجودهم جزء من مشاريعهم ومن ثم جزء من كينونتهم. بيد أن التوصل بحجة الاستقلالية لا ينحصر في معارضة الاستنساخ فحسب ولكن قد يُوظف أيضاً لمناهضة أي شكل من التلاعب الجيني الذي يسمح للوالدين باختيار الخصائص الجينية لأولادهم¹؛ إنه يُقلل من استقلاليتهم ويعتدي على حقهم في اختيار مشروع حياة خاص بهم.

تبدو حجة الاستقلالية كما لو أنها قد استوعبت -في المقام الأول- وأجابت عما يقلقنا في الاستنساخ الإنساني وفي أشكال أخرى من التحكم الجيني، لكنها ليست مقنعة لأنها تفترض -في حالة غياب التحكم من طرف الوالدين- أن الأطفال أحرار في اختيار خصائصهم الفيزيائية؛ لكن لا أحد يختار إرثه الجيني وليس لدى الطفل -خارج الاستنساخ والتلاعب الجيني- مستقبلاً محايداً متحرراً تماماً من تأثير الموهبة بوصفها منحة طبيعية، وعليه يبقى دائماً تحت رحمة ارثه الجيني².

لذلك يعتقد "مايكل صاندل" أن مشكلة تحسين النسل والهندسة الوراثية تمثل انتصاراً من جانب واحد للإرادة على الهبة والسيطرة على الاحترام والتلاعب على التأمل. لكن لماذا يجب علينا أن نقف في وجه هذا الانتصار على نحو مطلق؟ ألا ينبغي أن نستثني المرض؟ ما الذي نخسره إذا ما سمحت البيوتكنولوجيا بعلاج مناقص الطبيعة وهباتها؟

دون شك، لئن سمحت الهندسة الوراثية بتجاوز الصدف الجينية واستبدالها بالاختيار فإن طابع الهبة الذي تتميز به القدرات والنجاحات الإنسانية سيتراجع، لذلك يعترض الأغلبية على هذه الحجة ويعيبون عليها طابعاً ديني المفرد؛ لأن الحديث عن الهبة يفترض وجود واهب، وإذا كان الأمر كذلك فإن حجتنا -كما يقول صاندل- ضد الهندسة والإعلاء الوراثي "هي من طبيعة دينية بشكل لا يمكن تجنبه، ومع ذلك فهو يرى بالعكس أن تقدير طابع الهبة في الحياة يمكن أن يولد من مصادر علمانية أكثر منها دينية"³. فإذا كان هنالك من يعتقد أن الله هو مصدر كل حياة وأن تبجيلها هو شكل من الاعتراف والامتنان اتجاهه، فنحن لسنا مضطرين إلى الاشتراك في هذا المعتقد من أجل تقدير الحياة كهبة أو تبجيلها. نحن نتحدث عادة عن هبات رياضي أو موسيقي دون صياغة فرضيات حول الأصل الإلهي -أو لا- لهذه الهبات. ما يريد قوله هو ببساطة: لا تتوقف الموهبة على الرياضي أو الموسيقار بشكل كلي: أن يكون لدينا للطبيعة أو إلى القدر أو الله فهذا يعني أن الموهبة التي حصل عليها تتجاوز في جزء كبير سيطرته. وبالمثل نتحدث غالباً عن الطابع المقدس للحياة وحتى الطبيعة دون أن نضطر إلى الانخراط في مطارحات ميتافيزيقية عميقة عن هذه الفكرة؛ فالطبيعة مقدسة لأنها بمعنى بسيط ليست أداة أو شيء تحت تصرفنا مفتوح على كل استعمال نريد أن نستخدمها به.

تؤكد كل هذه التأويلات المختلفة للمقدس على أننا نقدر الطبيعة والكائنات الحية باعتبارها أكثر من مجرد أدوات، ومن يسلك اتجاهها سلوكاً مخالفاً فهو

يظهر عدم احترام عميق لها⁴. يعلمنا الكثير من المفكرين الليبراليين بداية من "لوك" "Jean locke" إلى "كانط" "Kant" إلى "هابرماس" "Habermas" أن فكرة الحرية تتوقف على أصل أو وجهة نظر تتجاوز سيطرتنا. بالنسبة لـ"لوك" تتجلى حياتنا وحریتنا بما هي حقوق ثابتة وراسخة لا يمكننا الانفصال عنها (من خلال الانتحار أو الرّق)، أما "كانط" فقد رأى أن الإنسان باعتباره مصدراً للقانون الأخلاقي وخالقاً له لا يمتلك الحرية في أن يستغل نفسه أو يعاملها والآخرين كموضوعات. وبالنسبة لـ"هابرماس" تتوقف حریتنا ككائنات أخلاقية وامتساوية على أصل يكمن فيما وراء التلاعب والسيطرة الإنسانية. نفهم من تحليل هذه المفاهيم عن القانون الراسخ والذي لا يمكننا انتهاكه أنها مفاهيم منخرطة ضمن تصور عقدي عن الطابع المقدس للحياة، وبالكيفية نفسها يمكننا فهم مفهوم المعطى أو الهبة والقبض على قيمته الأخلاقية سواء وجدنا مصدره أم لا في هبة إلهية. وفي هذا السياق لابد أن نخلص إلى أن مفهوم المعطى أو الهبة لا يعبران هنا عن توجه ديني باعتبارهما منحة من الله؛ فسواء كنّا مؤمنين أو لا، ما يهم في كلتا الحالتين أن الهبة تتعالى على كل ما هو ذاتي بما هي سرٌّ يقوم على مبدأ خارجي يتعالى على الإنسان.

أما المقاربة الثانية فتقيم رفض التلاعب الجيني بالحياة على الأخلاق العواقبية. وقبل أن نمضي في تحليل هذه الحجة من المفيد أن نشير إلى أن "مايكل صندل" عرض موقفه من الهندسة الوراثية في كتابه الموسوم بـ"ضد الكمال: الأخلاق في عصر الهندسة الوراثية" "contre la perfection: l'éthique à l'âge du génie" ⁵، أين انتقد هذا التحول الحاسم في تاريخ الطب من الطب العلاجي إلى الطب التحسيني، ويُعدُّ الكتاب محاكمة لفكرة الكمال التي اتخذت في عصر التقنو-علمي دلالة بيولوجية؛ فلكل فرد الحرية في أن يجري التعديلات التي يشاء على ذاته وسواء كان الاختيار متروكاً لدولة شمولية (أي تحسين النسل المؤسساتي (النازي) المبيد والذي اعتبر سلبياً) أو يرجع إلى ارادة حرّة للأفراد

(تحسين النسل الحرّ الذي اعتبر إيجابياً والذي يُدافع عنه أنصار الإنسانية المتحولة) فالأمر سيان، في الشكل الأول أو الثاني من تحسين النسل يتمّ تشييء الكائن الإنساني أو الطفل الذي سيولد مستقبلاً، ويستحيل اذاك إلى سلعة استهلاكية أو إلى موضوع يشكل وفقاً لرغبة الوالدين. لذلك يعتقد "صندل" أن هذا التحول هو انتقال من أخلاق العرفان لهباتنا الطبيعية إلى أخلاق السيطرة المطلقة على الذات والعالم الخارجي من قبل إنسان بروميتي يتشبه بالإله. وعليه لا تسرق هذه الإرادة البروميتية النار بل ثلاث قيم أخلاقية أساسية لتنظيم الحياة المشتركة⁶: هي "التواضع" "L'humilité" و"البراءة" "l'innocence" و"التضامن" "Solidarité".

بالنسبة للتواضع: يعود التواضع كقيمة أولى إلى واقع الوالدين الاجتماعي، فأن تكون أبا في لدن فضاء اجتماعي يُؤثّر السيطرة والهيمنة فكأنما تنخرط ضمن "مدرسة للتواضع"؛ لأن الحب العميق الذي يكنه الآباء لأبنائهم -بينما يعجزون عن اختيار نوع الاطفال الذين يريدونهم- يعلمهم البقاء منفتحين على ما هو غير متوقع، وهذا الانفتاح هو دعوة لتقبل ما هو غير منتظر والعيش في توافق مع كبح رغبتنا في السيطرة⁷. وعليه لن جعلت الهندسة الوراثية أسطورة الانسان ابن صنائعه حقيقة واقعية لن تعود ملكاتنا كهبات ندين اليها بل بالأحرى كإنجازات نحن مسؤولون عنها. سيظل الأطفال المحسنين جينيا مدينين أكثر من كونهم مسؤولين على سماتهم الجينية، لكنهم مدينين اتجاه آبائهم لا اتجاه الطبيعة والصدفة أو الله.

هذا ما يقودنا رأساً إلى القيمة الثانية وهي: البراءة، وهي ذات صلة بتعاضم مسؤولية الآباء في تحسين أطفالهم جسدياً وذهنياً ونفسياً، وخلافاً لما كنّا نعتقده لا يمحى الاعلاء الجيني المسؤولية الإنسانية بل يوسعها؛ بحيث تتخذ المسؤولية أبعاداً مخيفة لأننا سنُنسبُ إلى الاختيار أكثر مما ننسب إلى الصدفة، وسيكون

لدى الآباء مسؤولية واسعة يتحملونها في اختيار الخصائص الجينية الجيدة لأبنائهم من عدمه، وسيقف الرياضيون أمام ذواتهم كمسؤولين عن إكتساب المواهب التي تساعد فرقهم على الفوز. لذلك يعتبر "مايكل صاندل" أن من بين الأسباب التي تجعلنا سعداء باعتبارنا مخلوقات من صنع الطبيعة أو الله أو الصدفة هو أننا لسنا مسؤولين كلياً عما نحن عليه وكلما أصبحنا أسيادا لقدراتنا كلما زادت مسؤوليتنا ثقلاً تجاه المواهب التي نتمتع بها والطريقة التي نستخدمها بها⁸.

بوسعنا أن نلاحظ هذا الاتساع المفاجئ والكبير للمسؤولية والاحراج الأخلاقي ولنلمسه فيما يخلفه تغيّر المعايير المصاحبة لتطور استخدام اختبارات ما قبل الولادة، لقد كنّا نعتبر إلى وقت قريب أن ميلاد طفل مصاب بمتلازمة ما كنتيجة للصدفة؛ أما اليوم يشعر الكثير من الآباء الذين لديهم أطفالاً مصابين بمتلازمة داون أو بإعاقة وراثية أخرى بأنهم مذنبون ومدانون وهم عرضة للنقد لأنهم لم يتدخلوا لمنع حدوث ذلك؛ لم تعد الأمراض الوراثية تخضع للصدفة بل أضحت محكومة بالاختيار وتنصاع له⁹. لذلك لم يعد الآباء أحراراً في الهروب من مسؤولية الاختيار الناشئة عن هذه التكنولوجيات الجديدة، كما لا يمكنهم تجنب الانخراط في هذا الإطار الواسع للمسؤولية الأخلاقية التي تترافق مع ممارسات السيطرة الجديدة.

أما التضامن فقد تنبأ "مايكل صاندل" بزواله كقيمة ضرورية للعيش المشترك لتحل محله مسؤولية فردية ذاتية موهلة في الأنانية وإيثار الذات، ولتوضيحه يتوسّل بمثال شركات التأمين: فنحن نلجأ إلى التأمين نظراً لجهلنا بالمخاطر المستقبلية التي قد تهدد أرواحنا وممتلكاتنا، لذا نقبل جميعنا دفع

قسط من المال كتأمين مساوٍ لما يدفعه غيرنا بينما قد يستفدون منه أكثر منا أو العكس. فجعلنا بالمستقبل وعدم قدرتنا على الإحاطة به يجعل الخطر ماثلاً بالنسبة للجميع على القدر نفسه، لذا نقبل مخاطرة أخرى وهي التأمين إذا لزم من أجل لا شيء. بيد أنه خلافاً لذلك تماماً بمجرد أن نتحمل مسؤولية ما سيحدث لنا وما سيصيبنا من عيوب وأمراض أو استئصالها في المستقبل نتيجة لتحصيل النسل ستحل محل التضامن مسؤولية فردية أنانية.

زيادة على ذلك، أقام "صندل" نقده لتحسين النسل من منظور سياسي واجتماعي؛ فأن نمنح للأفراد قوى فوق انسانية فهذا ما سيخلق نوعاً من اللامساواة أو اللاعدالة داخل تراتبية اجتماعية جديدة. تتطلب الهندسة الوراثية وتحسين النسل ثروة من أجل خلق أجيال محسنة جينيا، بحيث يتعذر على أغلب طبقات المجتمع -خاصة الفقيرة- من الولوج إليها والاستفادة منها على نحو يخلف تفاوتاً كبيراً في القدرات نظراً لاختلاف وفرة الموارد المالية. بل أكثر من ذلك، سنشهد الكثير من الأنواع البشرية التي ستعايش في المستقبل بشكل متزامن كما كان الحال في الماضي مع البشر البدائيين "النيرندرتال" "Neanderta" والإنسان "الكروماغنون" "Cro-Magnon"¹⁰. سيخلق -لا محالة- هذا الوجود المتزامن بين نوعين متفاوتين صراعاً بين الطبقات ويفتح المجال لاستغلال النوع الأضعف من طرف الأقوى، لذلك لا ينبغي أن يُترك التحسين للأفراد وحدهم بل أن تكون للدولة يد حتى تُمكن الجميع من الولوج إلى هاته التقنيات الجديدة واستخدامها على قدم المساواة، وهذا ما أكدّه "نيك بوستروم" بقوله: "ينبغي تجنب ظهور طبقة مفضلة من المجتمع تُحسّن ذاتها وذريتها" بحيث نشهد في النهاية ظهور نوعين بشريين ليس لدهما الكثير من الأمور المشتركة عدا تاريخهما الذي يتقاسمانه. سيعيش أصحاب الامتياز لوقت طويل بصحة جيدة ويتمتعون بالذكاء الخارق والجمال الفائق دون تشوهات، أما غير المفضلين سيبقون في

المستوى الحالي على نحو يرفع عنهم كل احترام وتقدير للذات ويدفعهم نحو الغيرة¹¹. وهذا ما دفع "بوستروم" إلى البحث عن أفاق سياسية تسمح بتقليص اللامساواة.

ثالثاً. الهندسة الوراثية والمركز الأخلاقي للجنين:

كان غرض "مايكل صاندل" من مساءلته الأخلاقية للهندسة الوراثية هو التأسيس لأخلاق جديدة معتدلة أصطلح على تسميتها بـ "أخلاق الامتنان لهاباتنا الطبيعية"، وهي معتدلة لأنها دعوى لاحترام الطبيعة من جهة والانفتاح على استخدام تكنولوجيات الحي لأغراض علاجية تصويبا لأخطاء الطبيعة ومناقصها من جهة أخرى. لذلك يطرح التلاعب الجيني في الهندسة الوراثية علاقة متوترة مع مركز الجنين ويثير الكثير من التساؤلات ذات الطابع الأخلاقي؛ فمهما كانت الأغراض التي ترومها الهندسة الوراثية من خلال التلاعب بالحياة فهي تنطلق من البحوث والتجارب التي تتخذ من الخلايا الجذعية مادة لها، وهذا ما أذكي الكثير من الاعتراضات التي يمكن تلخيصها في حجتين: مقتضى الأولى؛ مهما كانت غايات هذه البحوث جديرة بالاعتبار إلا أن التجارب حول الخلايا الجذعية غير مقبولة لما تقتضيه من تدمير للأجنة الإنسانية، والثانية حتى ولئن كانت التجارب على الخلايا الجذعية غير مقبولة في ذاتها فهي تفتح الطريق أمام ممارسات لا إنسانية غير مراقبة كظهور مصانع الأجنة والرضع المستنسخين واستخدام الأجنة كمصدر للأعضاء البديلة والاتجار بالحياة الإنسانية¹².

من المهم في البداية الإشارة إلى أن الخلايا الجذعية المستخدم في هذه البحوث لا تستخلص من الجنين Foetus بل من الحويصلة الجنينية Blastocyste، وما يميز الأخيرة أنها لم تمتلك بعد سمات أو شكل نتعرف عليها كإنسان، فهي ليست جنينا مزروعاً نعى داخل رحم امرأة، إنها بالأحرى كومة مؤلفة من حوالي 180 إلى 200 خلية تطورت داخل وعاء زجاجي بالكاد نراها بواسطة العين المجردة. تشكل

الحويصلة الجنينية مرحلة مبكرة في التطور الجنيني بحيث لا تختلف الخلايا الجنينية التي تحتويها عن الأخرى ولم تجترح بعد خصائص النسيج والأعضاء مثل الكلية والعضلات والعمود الفقري.....الخ¹³، وهذا هو السبب الذي يتيح للعلماء استخلاص -من خلال التلاعب بها- أي نوع من الخلايا التي يريدون دراستها أو علاجها.

يرجع الخلاف الأخلاقي والسياسي حول الخلايا الجذعية إلى كون الحصول عليها يتطلب تدمير الحويصلة الجنينية، وهنا مكمن الاعتراض؛ إذ يُعتبر الجنين المكافئ الأخلاقي للشخص وهو كائن انساني مكتمل النمو أو التطور، ومن ثم يعد استخلاص الخلايا الجذعية من الحويصلة الجنينية عملاً مرفوضاً أخلاقياً مثل استخلاص أعضاء من رضيع بغرض انقاذ حياة شخص آخر.

يؤسس البعض هذا الموقف على المعتقد الديني الذي يرى أن الكائن الإنساني يمتلك نفساً منذ لحظة الحمل، بينما يدافع عنها البعض الآخر دون الرجوع إلى الدين ويستندون إلى الاستدلال التالي: ومؤداه؛ ليست الكائنات الإنسانية أشياء وحياتهم لا ينبغي التضحية بها ضد ارادتهم حتى وإن كانت لأسباب نبيلة مثل انقاذ حياة إنسانية أخرى. والسبب الذي يمنع من التعامل مع الناس كأشياء أو كوسائل لغايات أخرى هو كونهم كائنات لا تنتهك حرمتهم؛ إنهم بعبارة "كانط" غايات في ذاتها أهل للاحترام. لكن في أية لحظة يجترح الجنين هذه الحرمة؟ متى تصير الحياة الإنسانية جديرة بالاحترام؟

لا تتوقف الإجابة عن هذا السؤال على السن أو حالة تطور الحياة الإنسانية؛ كل كائن إنساني – كل واحد منا- قد بدأ حياته على شكل جنين ومن الخطأ اعتبار أن الكائن الانساني في سن مبكرة جداً أو في المراحل الأولى من تطوره لم يكن أهلاً للاحترام، فالأجنة تتمتع بالحرمة الفردية نفسها التي يتمتع بها الكائن الإنساني المكتمل النمو. لذلك تبدأ حجة التكافؤ الأخلاقي من واقع أن كل شخص

كان جنيناً بحيث لا نلفي أية حدود اعتبارية بين لحظة الحمل وسن البلوغ نقول عندها أنه قد اجترح مركز الشخص، وهي تدعو إثر استحالة وجود هذه الحدود إلى اعتبار الحويصلة الجنينية شخصاً مكافئاً أخلاقياً لكائن انساني مكتمل النمو أو التطور.

لكن، من جهة أخرى، هنالك الكثير من الأسباب التي تجعل من هذا الاستدلال غير مقنع؛ لأنَّ صحَّ أن كل واحد منا كان جنيناً فلا أحد منا كان حويصلة مستنسخة، وعليه حتى وإن كان أصلنا الجنيني دليلاً على أن الأجنة هم أشخاص فهذا لا يُدِينُ إلاَّ التجارب حول الخلايا الجذعية التي تنشأ عن تلقيح طبيعي، أي عن الاتحاد بين البويضة ovocyte والحيوانات المنوية spermatozoïde لا البحث حول الخلايا الجذعية الناتجة عن الأجنة المستنسخة¹⁴.

يجيب "مايكل صاندل" بالاحالة إلى النقاش الذي انخرط فيه حول الخلايا الجذعية معتبراً أن البعض من المشاركين في النقاش نظروا إلى الحويصلة الجنينية المستنسخة على أنها ليست أجنة بالمعنى الدقيق للكلمة ولكنها مصنوعات Artefacts بيولوجية (مستنسخات وليست بويضات ملقحة) لا تمتلك المركز الأخلاقي للجنين الإنساني الذي هو محصلة لحمل طبيعي، ويؤكدون أن استخدام أجنة مستنسخة في التجارب هو أقل ازعاجاً أخلاقياً من استخدام الأجنة الطبيعية.

ثانياً، حتى وإن وضعنا جانباً مسألة المستنسخات Clonets لا شيء يدل من كون كل شخص بدأ حياته كجنين على أن الأجنة أشخاصاً مكتملة النمو تتمتع بالمركز الأخلاقي ذاته. ولننظر إلى هذا المثال لنقارب الفكرة: إذا كانت كل حبة بلوط هي في الأصل بذرة فهذا لا يعنى أن كل بذرة هي حبة بلوط، واذك، هل ينبغي اعتبار فقدان بذرة تَغْدَى عليها سنجاب في حديقة المنزل كفقدان مكافئ لخسارة حبة بلوط اقتلعتها العاصفة؟¹⁵ على الرغم من استمرارية التطور من أحدهما إلى

الأخر فإن البذرات وحبّات البلوط مختلفتان، والشئ نفسه بالنسبة للأجنة والكائنات الإنسانية: تعد الأجنة -مثل البذرات التي هي حبّات بلوط بالقوة- كائنات إنسانية بالقوة، لذلك فإن التمييز بين الأشخاص الواقعية وبالقوة ذو دلالة أخلاقية تفرض علينا نحن الكائنات الواعية متطلبات لا يمكن للكائنات غير الواعية أن تفرضها علينا، فالكائنات القادرة على التجربة والوعي تفرض علينا متطلبات أكثر منها لأن الحياة الإنسانية تتطور عبر مراحل.

إن تعذر تحديد لحظة دقيقة يجترح عندها الجنين مركز الشخص داخل سيرورة التطور يجعل من الصعوبة بمكان الفصل بين الحويصلات الجنينية والشخص. ولنتأمل هذا التشبيه: لنفترض أنه يطلب منا تحديد عدد حبّات الرمل التي تشكل كومة، لا تكفي حبة واحدة أو اثنتين أو ثلاثة، وحينما ينعدم وجود لحظة اعتبارية تمنحنا إضافة حبة أخرى وجود الكومة فهذا لا يبرر اعتبار الحبة ككومة ولا يعني في الوقت نفسه عدم وجود اختلاف بينهما، أي الكومة والحبة.

هذه المعضلة التي تعكس صعوبة وجود نقطة محددة في الاستمرارية بما هي لحظة فارقة بين مرحلتين تسمى في عرف الفلاسفة بـ"مفارقة الكومة" *Paradoxe sorite* وهي موجودة منذ القدامة اليونانية وتأتي من الكلمة اليونانية *soros* والتي تعني كومة *Tas*. يطبق السفسطائيون هذا النوع من الحجاج من أجل اقناع محاورهم بأن خاصيتين منفصلتين مرتبطتان عن طريق الاستمرارية كانتا في الواقع متماهيتان حتى وإن افترض الحدس والحس المشترك العكس. إضافة إلى ذلك؛ ثمة مثال كلاسيكي مقتضاه: الكل يتفق على أن الشخص الذي يمتلك شعرة واحدة هو أصلع، لكن كم من شعرة تحدد الانتقال من الصلع إلى الرأس المُشعر؟ وإذا لم تكن هنالك إجابة دقيقة عن هذا السؤال مع ذلك فهذا لا يعني أنه ليس هنالك اختلاف بين الصلع والرأس المُشعر. والشئ نفسه يصدق على مركز الشخص الإنساني؛ لا يجعل التطور المستمر -من

الحويصلة الجنينية إلى الجنين إلى الرضيع حديث الولادة- من الرضيع حويصلة جنينية بالرغم من أنهما من الناحية الأخلاقية شيء واحد¹⁶.

إن الحجج المتأسسة على الأصل الجنيني لكل شخص انساني واستمرارية التطور لا تدفعنا إلى الاعتقاد بأن حرمة الحويصلة الجنينية لا ينبغي أن تنتهك لأنها تشكل المكافئ الأخلاقي للشخص. في سنة 2001 أعلن الرئيس "بوش" عن قطع التمويل الفيدرالي عن البحوث التي كانت فاعلة حول الخلايا الجذعية حتى لا يتم تشجيع تدمير الأجنة. وفي سنة 2006 استخدم -فضلاً عن ذلك- حق الفيتو لمعارضة مشروع قانون يقترح تمويل بحوث جديدة حول الخلايا الجذعية الجنينية مبرراً دعواه في رفضه لدعم تدمير أية حياة إنسانية بريئة. لكن موقف "جور بوش" كان صامداً إلى درجة أنه بالرغم من تحديده لتمويل البحوث حول الخلايا الجذعية الجنينية لم يحاول أبداً منعها¹⁷. ويُمكننا تلخيص سياسة "جورج بوش" في المفارقة التالية: "لا وجود لتمويل ولا وجود لمنع في الوقت نفسه" بالرغم من أن هذا النوع من السياسة يتعارض من حيث المبدأ مع فكرة الجنين ككائن انساني، ومؤدى ذلك لئن كان انتزاع الخلايا الجذعية من الحويصلة الجنينية هو المكافئ لانتزاع أعضاء من رضيع فإن السياسة الأخلاقية المسؤولة التي ينبغي اعتمادها هي منع هذا الانتزاع وليس فقط حرمانه من التمويل. ولننظر إلى الوضعية التالية: لنفترض أن بعض من الأطباء يعمدون إلى قتل الأطفال من أجل الحصول على أعضاء بغرض زرعها، لا أحد يتخذ موقفاً معارضاً للتمويل الفيدرالي ضد قتل الأطفال فحسب بل يعارضه ويمنعه في المجال العمومي. وعليه إذا كنّا على يقين بأن البحث حول الخلايا الجذعية الجنينية هو قتل للأطفال فلا ينبغي أن نكتفي بمنعه فقط بل سنعتبره شكلاً بشعاً من القتل ونخضع العلماء الذين يمارسونه إلى عقوبات قانونية صارمة.

يدفع "مايكل صاندل" بالنقاش اليتيقي حول الحجة التي ترى في الحويصلة الجنينية المكافئ الأخلاقي للشخص الإنساني إلى أقصى مداه قائلاً: " لنفترض

[كمثال ثانٍ] أن شخصاً ما حصل هو وزوجته على ثلاثة أطفال عن طريق التخصيب الاصطناعي، ولم يرغب الاثنان في غيرهما من الأطفال، بينما بقي لديهما في الوقت نفسه ثلاثة أجنة قابلة للحياة: ماذا ينبغي على الوالدين أن يفعلاه بهذه الأجنة الفائضة؟¹⁸، ثم يردف قائلاً وهذا جواب محاوره السؤال الذي طرحه: "أجاب محوري أنه من غير المقبول من الناحية الأخلاقية استغلال الأجنة باستخدامهم (وتدميرهم) بغرض إجراء بحوث حول الخلايا الجذعية، وفي الحالة أين نعجز عن إيجاد شخص ما لتبنيهم فلا يبقى لنا سوى ترك الأجنة لتموت بكرامة"¹⁹.

ما جلب انتباه "مايكل صاندل" في جواب محاوره ليس تخوفه من استخدام الأجنة في البحث ولكن خوفه من كل ما يمكن استخلاصه من هذا الموقف. إذا كانت الأجنة كائنات إنسانية فإن الجواب الباد الذي ينبغي أن يقدمه هذا الشخص مقتضاه أن حاله وزوجته -من خلق والتخلص من هذه الأجنة الثلاثة- هو حال من وهب لأبنائه ثلاثة إخوة قبل أن يقوم بالتخلص من الأجنة غير المرغوب فيها ويتركها لمصيرها. لكن إذا تم اعتماد هذا الوصف أخلاقياً وإذا كانت الأجنة الفائضة المجمدة -وعددها 400000 جنين- في عيادات المساعدة الطبية على الانجاب هي بمثابة رضيع تخلق عنهم أبائهم، لماذا لا يقوم المعارضون لإجراء التجارب على الخلايا الجذعية الجنينية بحملة ضد ما ينبغي أن يعتبروه قتلًا جماعياً للأطفال على نطاق واسع؟

يمكن للذين يعتبرون الأجنة كأشخاص الرد على موقف "مايكل صاندل" متحججين بكون الأجنة المجمدة تمثل العلاج الفعال ضد العقم الذي يتطلب خلق وتدمير الأجنة الفائضة، هذا على الرغم من أن لديهم أملاً ضئيلاً في منع هاته الممارسات. لكن نتائج موقفهم تتعلق بأكثر من الأجنة الضائعة في الاخصاب الاصطناعي؛ يعتقد المدافعون عن الاخصاب الاصطناعي أن نسبة ضياع الأجنة في هذه الحال أقل بكثير من الانجاب الطبيعي؛ فأكثر من نصف الأجنة المخصصة

لا يتم زراعتها فضلاً عن أنها تضيع لأسباب أخرى. إن هذا المعطى يشكل صعوبة إضافية بالنسبة للمدافعين عن التكافؤ الأخلاقي، فلئن كان الموت المبكر للأجنة هو جزء من السيورة العادية للإنجاب الطبيعي فلا ينبغي اذن القلق تجاه فقدان المفرط للأجنة المستخدمة في العلاج ضد العقم والبحوث حول الخلايا الجذعية.

لا نماري اذاً في تقدير قيمة الحياة كهبة، بيد أن هذه الأخيرة ليست دائماً جيّدة، وهذا ما ينافح عنه "مايكل صاندل" وهو جواز اجراء البحوث على الخلايا الجذعية الجنينية، ولئن ارتبطت المشكلة بالمركز الأخلاقي للجنين لماذا نقبل إنشاء والتضحية بالأجنة بغرض القضاء على العقم ونناهض استخدامها لغايات علاجية؟ وهل ينبغي، فضلاً عن ذلك، منع اجراء البحوث على الأجنة بالتّستر وراء غطاء استحالة تحديد -وبدقة- عند أية لحظة يجترح الجنين مركزاً يجعل منه كائنًا إنسانياً كاملاً؟ بالتأكيد تخضع الحياة الإنسانية لسيورة متواصلة إلا أنها لا تُلغي المراحل التي تمر بها: من الحويصلة الجنينية إلى الجنين إلى المولود الجديد، فهي ليست الشيء نفسه. والشاهد على ذلك؛ تختلف ردة فعلنا بين فقداننا لجنين وبين فقداننا لطفل على نحو لا يمنع الاحترام الأخلاقي للأجنة كحياة ممكنة من استخدامها لأغراض نافعة ونبيلة من الناحية الانسانية مثل تطوير العلاج وتصويب أخطاء الطبيعة أو العالم²⁰.

خامسا. الخاتمة:

إن مناهضة المقاربات الأداتية التي يرومها البيوتقديميون ومنافحة كل أشكال الاتجار الحديثة بالحياة لا يكمن في التأكيد على أخلاق مانوية عن احترام الأشخاص والتي تسجن الحياة داخل حسابات نفعية، فمثل هاته الأخلاق تحول كل مشكلة أخلاقية إلى معركة من أجل رسم حدود مركز الشخص. من الأقوم غرس فكرة تقدير أكثر للحياة كهبة بمقدورها أن تشجع على احترامها وتضييق الاستعمالات الذي تمس بها. إن التلاعب الجيني الذي ينتهي إلى انتاج أطفال حسب الطلب هو التعبير الأكثر تطرفاً عن فقدان الاحترام للحياة كهبة. لذلك فإن يُعبر البحث حول الخلايا الجذعية الموجهة إلى علاج المرض عبر التوصل بالحوصلات الجنينية غير المزروعة عن ممارسة نبيلة لطبيعتنا الإنسانية تهدف إلى ترقية العلاج ولعب دور فاعل في اصلاح أخطاء العالم أو الطبيعة. وهذا ما يمنع من الاستخدام الأعشى للحياة الإنسانية ويجعل التقدم البيوطي يعود بالفائدة على الصحة.

سادسا. قائمة المصادر والمراجع:**. المراجع باللغة الفرنسية:**

- Gilber. Hottois : Philosophie et idéologies trans/posthumanistes, J. VRIN, Paris, 2017.
- Luc Ferry : La révolution transhumaniste, comment la technomedecine et l'uberisation du monde vont bouleverser nos vies , éditions Plon, 2016.
- Michael Sandel : contre la perfection, l'éthique a l'âge du génie génétique, J. VRIN, Paris, 2016.

المقالات:

- معافة هشام: الانسانية التحولة وابتيقا الخلق الإلهي، مجلة منتدى الأستاذ، المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار قسنطينة، المجلد 19، العدد 01، ديسمبر 2023

مواقع الانترنت:

- Guillaume Lillet : Contre la perfection – L'éthique à l'âge du génie génétique de Michaël J Sandel, éd. VRIN matière étrangère , Lu par Guillaume Lillet. <http://blog.ac-versailles.fr/oeildeminerve/index.php/post/07/02/2017/Contre-la-perfection-%E2%80%93L%E2%80%99%C3%A9thique-%C3%A0-l%E2%80%99%C3%A2ge-du-g%C3%A9nie-g%C3%A9n%C3%A9tique-de-Micha%C3%ABl-J-Sandel%2C-%C3%A9d.-VRIN-mati%C3%A8re-%C3%A9trang%C3%A8re-%2C-Lu-par-Guillaume-Lillet.23/01/2024>.

سابعاً. الهوامش:

¹- Michael Sandel : contre la perfection, l'éthique a l'âge du génie génétique, J. VRIN, Paris, 2016. p 11.

² - Ibid, p 63.

³ - Ibid, p 63.

⁴ - Ibid, p 69.

⁵- Michael Sandel : contre la perfection, l'éthique a l'âge du génie génétique, J. VRIN, Paris, 2016.

⁶- Luc Ferry : La révolution transhumaniste, comment la technomedecine et l'uberisation du monde vont bouleverser nos vies , éditions Plon, 2016, p 121.

⁷- معافة هشام: الانسانية التحويلة وايتيقا الخلق الإلهي، مجلة منتدى الأستاذ، المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار قسنطينة، المجلد 19، العدد 01، ديسمبر 2023، ص 713.

⁸ - Michael Sandel : contre la perfection, l'éthique a l'âge du génie génétique, Op,Cit, p 64.

⁹- معافة هشام: الانسانية التحويلة وايتيقا الخلق الإلهي، مرجع سابق، ص 713.

¹⁰ Luc Ferry : La révolution transhumaniste, comment la technomedecine et l'uberisation du monde vont bouleverser nos vies , Op,Cit, p 125.

¹¹- معافة هشام: الانسانية التحويلة وايتيقا الخلق الإلهي، مرجع سابق ص 714.

¹² - Michael Sandel : contre la perfection, l'éthique a l'âge du génie génétique, Op,Cit, p81.

¹³ - Ibidem.

¹⁴- Ibid, p 83.

¹⁵- Ibidem

¹⁶- Ibid, p 84.

¹⁷- Ibid, p 86.

¹⁸- Ibid, p 87.

¹⁹- Ibid, p 88.

²⁰- Guillaume Lillet : Contre la perfection – L'éthique à l'âge du génie génétique de Michaël J Sandel, éd. VRIN matière étrangère , Lu par Guillaume Lillet. <http://blog.ac-versailles.fr/oeildeminerve/index.php/post/07/02/2017/Contre-la-perfection-%E2%80%93-L%E2%80%99%C3%A9thique-%C3%A0-l%E2%80%99%C3%A2ge-du-g%C3%A9nie-g%C3%A9n%C3%A9tique-de-Micha%C3%ABl-J-Sandel%2C-%C3%A9d.-VRIN-mati%C3%A8re-%C3%A9trang%C3%A8re-%2C-Lu-par-Guillaume-Lillet.23/01/2024>.